الفصل الحادي والسبعون

شعائر الدين

ولكل دين شعائر تكون له سمة وعلامة تميزه عن غيره من الأديان . ولمّا كنا قد ذكرنا ان الجاهليين كانوا شعوباً وقبائل ، لم تجمع بينهم وحدة فكر ولم تضمهم دولة واحدة ، أو عقيدة مشتركة ، فنحن لا نستطيع أن نتحدث عن شعائر واحدة لجميع عرب الجاهلية .

وما سأذكره عن ديانات أهل الجاهلية ، مستمد إما من نصوص جاهلية ، وذلك فيما يخص العربية الغربية والعربية الجنوبية في الغالب، وإما من موارد اسلامية، وهو ما يتناول أهل الحجاز ، قبيل ظهور الاسلام ، وبعض أنحاء نجد . وهو مما جاء عنهم في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي وفي كتب التفسير والسير والأخبار مما له صلة بأيام الجاهلية المتصلة بالاسلام ، وبظهور الاسلام .

وفي مقدمة شعائر الدين عند أهل الجاهلية : الأصنام وبيوتها والتقرب اليها بالصلاة وبالسجود وبالطواف حولها ، وبالنذور ، وبالحبوس وبالقسم بها ، وذلك لتمنّ على عبدها الانسان فتمنحه ما يرجوه في هذه الحياة من صحة وعافية ومال ونسل وذكور . وتكاد تنحصر الكتابات الجاهلية[1] التي عثر عليها حتى الآن بهذه الأمور ، اذ لا نكاد نجد فيها شيئاً له علاقة بالآلهة يخرج عن حدود ما ذكرت . ويكاد يقتصر ما جاء في روايات أهل الأخبار عن ديانة أهل الجاهلية بهذه الأمور

---

١ Grohmann, S. 89, Jaussen - Savignac, Mission, II, 397, 401, 452.

أيضاً ، فلا تتجاوز ما ذكرته من تقرب الى صنم أو توسل اليه وطواف بـــه ، لنيل شيء منه يتمناه ويرجوه في هذه الحياة الدنيا .

أما الصلاة الى الآلهة عـلى نحو ما يفهم من الصلاة في الإسلام فلا نجد لهـــا ذكراً في النصوص الجاهلية ، ولا نكاد نجد لها صورة واضحة صحيحة في روايات أهل الأخبار ، اللهم إلا فيما يخص صلوات اليهود والنصارى والعرب فقـــد كان هؤلاء يصلون في كنائسهم في أوقات معينة ، وقف بعض أهل الجاهلية عليهـــا ، فأشاروا اليها في أشعارهم وفي حديثهم عن أهل الكتاب .

وقد ذُكر ان عبدة (الشمس) كانوا قد (اتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار ، وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلّون فيـه لها ثلاث كرات في اليوم، ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفعون به . وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها،واذا غربت واذا توسطت الفلك . ولهذا يقارنها الشيطان في هذه الأوقات الثلاثة ، لتقع عبادتهم وسجودهم له. ولهذا نهى النبي ، صلى الله عليه وسلم، عن تحري الصلاة في هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً ، وسداً لذريعة الشرك وعبادة الأصنام)[1] . وذكر (اليعقوبي) ان العرب كانت « اذا أرادت حج البيت الحرام ، وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلّوا عنـــده ثم تلبوا »[2] . وفي هذين الخبرين دلالة عـــلى وجود الصلاة عند الجاهليين ، ولا سيما في خبر عبدة الشمس ، حيث كانوا يصلّون ثلاث كرات لها في اليوم .

وذكر ان (التسبيح) بمعنى الصلاة والذكر ، روي ان (عمر) جلد رجلين سبّحا بعد العصر ، أي صلّيا . وان قول الأعشى :

وسبّح على حين العشيّات والضحى ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا

يعني الصلاة بالصباح والمساء وعليه فسر قوله : فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، يأمرهم بالصلاة في هذين الوقتين[3] .

---

١ بلوغ الارب (٢/٢١٥ وما بعدها) .
٢ اليعقوبي (١/٢٢٥) .
٣ اللسان (٢/٤٧٣) ، (سبح) .

وذكر انهم كانوا يصلّون على موتاهم ، وكانت صلاتهم ان يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم وليّه ، فيذكر محاسنه كلها ويثني عليه . ثم يقول : عليك رحمة الله . ثم يدفن[1] .

وقد أشير الى سجود الناس للشمس والقمر في القرآن الكريم : « ومن آياته الليل والنهار ، والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا ، فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون »[2] . « يقول تعالى ذكره : فإن استكبر يا محمد هؤلاء الذين أنت بين أظهرهم من مشركي قريش وتعظموا عن أن يسجدوا لله الذي خلقهم وخلق الشمس والقمر ، فإن الملائكة الذين عند ربك لا يستكبرون عن ذلك ولا يتعظمون عنه »[3] . كما أشير الى سجود أهل (سبأ) الى (الشمس) في الآية : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون »[4] . وفي هذه الآية وصف لتعبد أهل سبأ للشمس وسجودهم لها . وقد ذكر المفسرون أن ملكة سبأ « كانت لها كوة مستقبلة الشمس ، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها ، فتسجد لها »[5] . فسجودهم للشمس ، هو عبادة لها وتعظيماً لشأنها .

الصوم :

وأما (الصوم) ، فنحن لا نجد له ذكراً في الكتابات الجاهلية بالمعنى المفهوم منه عند أهل الكتاب أو المسلمين . وهو في اللغة الإمساك عن الشيء والترك له . وقيل للصائم صائم لامساكه عن المطعم والمشرب والمنكح ، وقيل للصامت صائم لامساكه عن الكلام . « وقوله عزّ وجل : إني نذرت للرحمان صوماً . قيل :

---

١ المحبر (٣٢٠ وما بعدها) .
٢ سورة فصلت ، الرقم ٤١ ، الآية ٣٧ وما بعدها .
٣ تفسير الطبري (٢٤/٧٧) .
٤ النمل ، الرقم ٢٧ ، الآية ٢٤ .
٥ تفسير الطبري (١٩/٩٤ وما بعدها) ، تفسير القرطبي (١٣/١٩٠ وما بعدها) .

معناه صمتاً ، ويقويه قوله تعالى : فلن أكلّم اليوم إنسياً »[1] . والصوم : الصبر كذلك .

وقد ذكر (الصوم) في السور المدنية ، أما في السور المكية ، فقد ذكر مرة واحدة ، في (سورة مريم) : « فقولي : إني نذرت للرحمن صوماً . فلن أكلم اليوم إنسياً »[2] . وقد حددت السور المدنية أصول الصيام في الإسلام .

والصوم المعروف عند اليهود والنصارى معروف عند أهل الجاهلية الذين كان لهم اتصال واحتكاك بأهل الكتاب . فقد كان أهل يثرب مثلاً على علم بصوم اليهود ، بسبب وجودهم بينهم . وكان عرب العراق وبلاد الشأم على علم بصوم النصارى ، بسبب وجود قبائل عربية متنصرة بينهم . وكان أهل مكة ، ولا سيما الأحناف منهم والتجار على معرفة بصيام أهل الكتاب . وبصيام الرهبان ، المتمثل في السكوت والتأمل والجلوس في خلوة ، للتفكير في ملكوت السماوات والأرض . ويظهر من أخبار أهل الأخبار أن من الجاهليين من اقتدى بهم ، وسلك مسلكهم. فكان يصوم ، صوم السكوت والتأمل والامتناع عن الكلام والانزواء في غار حراء وفي شعاب جبال مكة .

ويذكر أهل الأخبار ان قريشاً كانت تصوم يوم عاشوراء . وفي هذا اليوم كانوا يحتفلون ، ويعيّدون ، ويكسون الكعبة ، وعللوا ذلك بأن قريشاً أذنبت ذنباً في الجاهلية ، فعظم في صدورهم ، وأرادوا التكفير عن ذنبهم ، فقرروا صيام يوم عاشوراء ، فصاموه شكراً لله على رفعه الذنب عنهم[3]. وذكر ان رسول الله كان يصوم عاشوراء في الجاهلية ، ولما قدم المدينة واظب عليه وأمر الناس بصيامه حتى نزل الأمر بصيام رمضان . وقد ذكر العلماء انه يحتمل ان قريشاً اقتدت بصيامه في الجاهلية ، بشرع سالف ، ولذا كانوا يعظمونه بكسوة البيت الحرام فيه[4] . وذكر بعضهم: كان يوم عاشوراء ، يوماً تصومه قريش في الجاهلية، اقتداءً بشرع سابق ، وكان النبي يصومه في الجاهلية ، فلما قدم المدينة صامه على عادته وأمر أصحابه بصيامه في أول السنة الثانية ، فلما نزل رمضان ، كان من

---

١ اللسان (/ ٣٥٠) ، (صوم) .
٢ سورة مريم ، رقم ١٩ ، الآية ٢٦ .
٣ بلوغ الارب (٢/٢٨٨) .
٤ ارشاد الساري (٣/٤٢١) ، (باب حكم صيام عاشوراء) .

شاء صام يوم عاشوراء ومن شاء لا يصومه . وعللوا سبب صيام (قريش) هذا اليوم ، انه كان أصابهم قحط ثم رفع عنهم ، فصاموه شكراً[1] . وورد « ان قريشاً كانت تعظم هذا اليوم ، وكانوا يكسون الكعبة فيه ، وصومه من تمام تعظيمه » . وذكر ان رسول الله ، كان يتحرى صوم يوم عاشوراء على سائر الأيام ، وكان يصومه قبل فرض رمضان . فلما فرض رمضان ، قال : من شاء صامه ، ومن شاء تركه . وبقي هو يصومه تطوعاً ، فقيل له : « يا رسول الله انه يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال ، صلى الله عليه وسلم : اذا كان العام المقبل ان شاء الله صمنا اليوم التاسع،فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله »[2] .

وذكر أيضاً ان قريشاً كانوا اذا أصابهم قحط ثم رفع عنهم صاموا شكراً لله وحمداً له على اجابة دعوتهم[3] .

وقد أشار أهل الحديث الى صيام (يوم عاشوراء) ، فجعله بعضهم الصيام الذي كان في الإسلام قبل فرض صيام شهر رمضان ، وذكر بعضهم أنه كان مفروضاً الى السنة الثانية من الهجرة ، ثم نسخ بصوم رمضان[4] .

وقد أشير الى الصيام في السور المكية من القرآن الكريم كما أشير اليه في السور المدنية ، ويدل نزول الوحي به في مكة وفي المدينة أنه كان من الشعائر الدينية القديمة ، وأن قريشاً كان لها علم به . ويظهر من بعض الآيات أن المراد من الصوم لم يكن الامتناع من الأكل والشرب حَسْبُ ، بل كان يعني في أول عهد النبوة الامتناع عن الكلام كذلك[5] .

ورواية أن قريشاً كانت تصوم في يوم (عاشوراء) ، لا تتفق مع الروايات الأخرى في كيفية فرض صيام شهر رمضان . ففي هذه الدوايات أن النبي «حين قدم المدينة رأى يهود تصوم يوم عاشوراء ، فسألهم : فأخبروه أنه اليوم الذي غرّق الله فيه آل فرعون ، ونجّى موسى ومن معه منهم . فقال : نحن أحق بموسى منهم ، فصام ، وأمر الناس بصومه . فلما فرض صوم شهر رمضان ،

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٤) ، « باب أيام الجاهلية » .
٢ زاد المعاد (١/١٦٤ وما بعدها) .
٣ ارشاد الساري (٦/١٧٤) .
٤ راجع كتب الحديث : باب الصوم .
٥ سورة مريم ، الآية ٢٦ . وهي سورة مكية ، رقمها ٥٨ حسب نزول السور بمكة .

لم يأمرهم بصوم يوم عاشوراء ، ولم ينههم عنه »[1] . وورد أن يهود خيبر والمدينة كانوا يعظمون صيام عاشوراء ويتخذونه عيداً[2] .

ويقصدون بصوم اليهود يوم عاشوراء ، ما يقال له (يوم الكفارة) ، وهو يوم صوم وانقطاع ، ويقع قبل عيد المظال بخمسة أيام ، أي في يوم (١٠ تشرى) وهو يوم (الكبور) Kipur . ويكون الصوم فيه من غروب الشمس الى غروبها في اليوم التالي ، وله حرمة كحرمة السبت ، وفيه يدخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس لأداء الفروض الدينية المفروضة في ذلك اليوم[3] .

ومما يلاحظ ان علماء التفسير والحديث ، قد اختلفوا اختلافاً كبيراً في موضوع الصيام قبل نزول الأمر به وفرضه . فقال بعضهم كان المسلمون يصنعون كما تصنع من صيامهم خمسين يوماً (حتى كان من أمر أبي قيس بن صرمة وعمر بن الخطاب ما كان ، فأحل لهم الأكل والشرب والجماع الى طلوع الفجر)[4] . وقال بعض آخر ، كان صيام الناس قبل فرض رمضان صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وذكر ان ذلك كان تطوعاً لا فرضاً ، ولم يأت خبر تقوم به حجة بأن صوماً فرض على أهل الاسلام غير صوم شهر رمضان[5] . ولم أتمكن من العثور على خبر قاطع يفيد بأن المسلمين كانوا يصومون بمكة قبل الهجرة الى المدينة .

ولا صلة لقصة (أبي قيس بن صرمة الأنصاري) (أبو صرمة الأنصاري) و (عمر بن الخطاب) بصيام عاشوراء ولا بعدد أيام الصوم . وكل ما ورد فيها ان المسلمين كانوا في أول ما افترض عليهم في رمضان اذ أفطروا وكان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يرقدوا ، فإذا رقدوا حرم عليهم ذلك الى مثلها من القابلة ، فلم يزل المسلمون على ذلك ، حتى نام (أبو قيس بن صرمة) بعد افطاره وكان يعمل في حيطان المدينة بالأجر ، فلما أفاق أبى ان يأكل شيئاً وأصبح صائماً ، وكان (عمر) قد وقع على جارية له ، فنزل الوحي

---

١ الطبري (٢/٢٦٥) ، « ذكر بقية ما كان في السنة الثانية من الهجرة » ، ارشاد الساري (٣/٤٢١) .
٢ ارشاد الساري (٣/٤٢٣) .
٣ قاموس الكتاب المقدس (٢/٢٦٠) .
٤ تفسير الطبري (٢/٧٥ وما بعدها) .
٥ تفسير الطبري (٣/٧٦ وما بعدها) .

بنسخ ذلك عنهم في آية : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن . علم الله انكم كنتم تختانون أنفسكم »[1] . فلا صلة لقصتيها بموضوع الصوم .

ويظهر أنه خبر صيام قريش يوم (عاشوراء) ، هو خبر متأخر ، ولا يوجد له سند يؤيده . ولا يعقل صيام قريش فيه ، وهم قوم مشركون . وصوم (عاشوراء) ، هو من صيام يهود . وهو صيام كفارة واستغفار عندهم ، فلم يستغفر قريش ويصومون هذا اليوم ؟ وماذا فعلوا من ذنب ، ليطلبوا من آلهتهم العفو والغفران ؟ وإذا كان هناك صوم عند الجاهليين ، فقد كان بالأحرى أن يصومه الأحناف ، ولم يرد في أخبار أهل الأخبار ما يفيد صيامهم في (عاشوراء) ولا في غير عاشوراء . ثم إن علماء التفسير والحديث والأخبار ، يذكرون أن الرسول صام (عاشوراء) مقدمه المدينة على نحو ما ذكرت قبل قليل . وأنه بقي عليه حتى نزل الأمر بفرض رمضان . ويظهر أن الرواة أقحموا اسم قريش في صيام (عاشوراء) ، لإثبات أنه كان من السنن العربية القديمة ، التي ترجع الى ما قبل الأسلام . وأن قريشاً ، كانت تصوم قبل الإسلام[2] .

ويظهر من روايات أهل الأخبار ، أن صوم أهل الجاهلية : صوم امتناع عن الأكل والشرب وإتيان النساء . وهو صوم الاسلام ، وصوم امتناع عن الكلام وحبس للسان ، إما لأمد معين قصير ، مثل يوم أو اسبوع ، وإما لأمد طويل. وقد أشير في القرآن الكريم ان هذا الصوم في قوله تعالى : « فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلّم اليوم أنسياً »[3] . وروي أن رجالاً من زهاد أهل الجاهلية كانوا يصومون هذا الصوم .

وقد اتخذ الصوم نذراً ، روي أن (أبا بكر) دخل على امرأة من (أحمس) يقال لها (زينب) ، فرآها لا تتكلم ، فقال : ما لها لا تكلم ؟ قالوا : حجت مُصمتة ، قال لها : تكلمي . فإن هذا لا يحل . هذا من عمل الجاهلية، فتكلمت.

---

١ البقرة ، الآية ١٨٧ ، تفسير الطبري (٢/٩٤ وما بعدها) .

٢ Sprenger; Leben, III, S. 54.

٣ سورة مريم ، الرقم ١٩ ، الآية ٢٦ ، تفسير الطبري (١٦/٥٦) ، روح المعاني (١٦/٧٩) .

فقالت له : من أنت : قال امرؤ من المهاجرين . قالت : أي المهاجرين ؟ قال لها : من قريش . قالت له : من أي قريش أنت ؟ قال : إنك لسؤول . أنا أبو بكر . قالت : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية ؟ قال : بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت : وما الأئمة ؟ قال لها: كان لقومك رؤوس وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم ؟ قالت : بلى . قال : فهم أولئك على الناس[1] .

فالتصميت ، وهو الصوم عن الكلام ، من فعل أهل الجاهلية . وهو معروف عندهم ، ولعله وقع لهم بتأثرهم بأهل الكتاب .

التحنث :

ومن طرق عبادة أهل الجاهلية : التحنث ، أي التعبد والتقرب الى الآلهة ، ومن ذلك حديث (حكيم بن حزام) : « أرأيت أموراً كنت اتحنث بها في الجاهلية من صلة رحم وصدقة ، أي أتقرب الى الله تعالى بأفعال في الجاهلية »[2] . وكان رسول الله « يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان مما تحنّث به قريش في الجاهلية . والتحنث : التبرر » . « فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به — اذا انصرف من جواره — الكعبة قبل ان يدخل بيته ، فيطوف بها سبعاً » ، ثم يرجع الى بيته . وذكر ان ذلك الشهر هو شهر رمضان[3] .

الاختتان :

ومن شعائر الدين عند الجاهليين الاختتان . وهو من الشعائر الفاشية بينهم ،

---

١ ارشاد الساري (٦/١٧٥ وما بعدها) ، (انها مصمتة ، انها نذرت أن لا تتكلم . فقال : تكلمي انما هذا من فعل الجاهلية) ، الاصابة (٤/٣١٥ وما بعدها) ، (رقم ٥١٣ ، ٥١٥) ، اللسان (٢/٥٥) .

٢ تاج العروس (١/٦١٦) ، (حنث) .

٣ الطبري (٢/٣٠٠) .

حتى انهم كانوا يعيرون (الأغرل) ، وهو الشخص الذي لم يختتن . وكان منهم ولا سيما أهل مكة من يختتن البنات أيضاً ، بقطع (بظورهن) . وتقوم بذلك (الختانة) (الخاتنة) . وقد كانوا يعيرون من تكون أمه (ختانة) نساء ، فإذا أرادوا ذم أحد قالوا له : يا ابن مقطعة البظور ، وإن لم تكن أم من يقال له : خاتنة [1] .

وأما الاغتسال من الجنابة وتغسيل الموتى ، فمن السنن التي أقرت في الاسلام ، وقد أشير الى غسل الميت في شعر للأفوه الأوديّ . وأشير الى تكفين الموتى والصلاة عليهم في أشعار منسوبة الى الأعشى وإلى بعض الجاهليين [2] . وورد أن قريشاً كانت تغسل موتاها وتحنطهم ، ولكننا لا نستطيع تعميم هذه الأمور على كل العرب ، ولا الإدعاء بأنها كانت من شعائر الدين عندهم ، لما ذكرته مراراً من اختلاف العرب بأمور دينهم ، وعدم خضوعهم لدين واحد . بل ورد أن المشركين لم يكونوا يغتسلون من الجنابة ، وقد ذهب المفسرون الى أن لفظة (نجس) الواردة في الآية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [3] . فانما قصد بها أجناب ، « سمّاهم بذلك لأنهم يجنبون فلا يغتسلون . فقال : هم نجس ولا يقربوا المسجد الحرام ، لأن الجنب لا ينبغي له أن يدخل المسجد » [4] . ولما نزل الأمر بمنع المشركين من دخول مكة ، « شق ذلك على أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : من يأتينا بطعامنا ومن يأتينا بالمتاع ؟ فنزلت وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » . و « كان المشركون يجيئون الى البيت ويجيئون معهم بالطعام ويتجرون فيه . فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون من أين لنا طعام ؟ فأنزل الله وان خفتم عيلة ، فسوف يغنيكم الله من فضله » [5] .

والقرابين والنذور وزيارات المعابد والحج ، هي من أبرز الشعائر الدينية عند

---

١ تاج العروس (٣/٥٢) ، (بظر) ، نهاية الارب (١٧/١٠٠) .
٢ المحبر (٣١٩ وما بعدها) .
٣ سورة التوبة ، الآية ٢٨ .
٤ تفسير الطبري (١٠/٧٤) .
٥ تفسير الطبري (١٠/٧٥) .

سواد الناس . وتكاد تكوّن مفهوم الدين عندهم ، وذلك لما فيها من تماس مباشر بأمور حياتهم ومصالحهم . فهم يفعلون ذلك لغايات استرضاء الآلهة والتوسل اليها بأن تعطيها غلة وافرة ومالاً ، فكانوا اذا تقربوا الى صنم أو دعوا ربهم أو أدوا مناسك حجهم (فلا يسألون ربهم) إلا متـــاع الدنيا (فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا . هب لنا غنماً ، هب لنا إبلاً) . (وكانوا يعني في الجاهلية يقفون يعني بعد قضاء مناسكهم ، فيقولون : اللهـم ارزقنا إبلاً ، اللهم ارزقنا غنماً) ، وفي هؤلاء نزلت الآية : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق »[1] .

والفقر هو الذي حمل هؤلاء على ان يتقربوا الى آلهتهم بالنذور والقرابين وبالحج على فقرهم وجوعهم ، على أمل ان تعطف الآلهة عليهم ، فتمن عليهم بالمـــال واليسر والبركة والصحة ، تماماً كما يفعل شرّاء أوراق (النصيب) أو أوراق سباق الخيل من الفقراء والمحتاجين على أمل الربح والكسب .

وهذه النظرة المادية الساذجة،هي التي حملت عوامهم على تهديد آلهتهم وإخبارها انهم سيمتنعون عن تقديم أي نذر أو أداء أيـــة زيارة لها ، إن لم تمنّ عليهـــم وتستجيب لأدعيتهم ، فتنفذ طلباتهم وما طلبوه منها . وهي التي تحملهم بعد ذلك على التراجع عن تهديداتهم هذه ، وعلى الاستغفار واظهار الندم لها ، لما بدر منهم من سوء أدب ، على أمل استرضاؤها من جديد ، بعد أن فشلت وسائل التهديد من تخويف تلك الآلهة .

الحلال والحرام :

يقول (ابن عساكر) في رواية تنسب الى رجل من خثعم : « كانت العرب لا تحرم حلالاً ولا تحل حراماً . وكانوا يعبدون الأوثان ويتحاكمون اليهـا »[2] . ومعنى هذا انهم كانوا يحللون ويحرمون . وأن أمر الحلال والحرام الى رجال الدين منهم ، وهم سدنة الأوثان .

وقـــد تعرض (اليعقوبـي) لموضوع (أديان العرب) وشعائرها ، فقال :

---

١ البقرة ، الآية ٢٠٠ ، تفسير الطبري (٢/١٧٤ وما بعدها) .
٢ التاريخ الكبير ، لابن عساكر (١/٣١٧) .

« وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل المال ، والانتقال الى البلدان ، والانتجاعات . فكانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم ، يحجون البيت ويقيمون المناسك ، ويقرون الضيف ويعظمون الأشهر الحرم ، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ، ويعاقبون على الجرائم »[1] . فأدخل في الدين أموراً نعدها اليوم من الأعراف وقواعد الأخلاق والسلوك ، وجعلها من سنة ابراهيم ، أي دين العرب القديم قبل افساده بالتعبد للأصنام .

وذكر (السكري) ، أن العرب كانت « دون من سواها من الأمم . تصنع عشرة أشياء منها : في الرأس خمسة . وهي المضمضة والاستنشاق والسواك والفرق وقص الشارب . وفي الجسد خمسة . هي : الختانة وحلق العانة ونتف الأبطين ، وتقليم الأظفار والاستنجاء . خصت بهذا العرب ، دون الأمم »[2] . فهذه الأمور العشرة هي من شعائر العرب في نظر (السكري) . وهي شعائر ، لا يمكن أن نجاريه في رأيه ، فنقول إنها كانت في جميع العرب ، وإنها كانت فيهم خاصة ، دون غيرهم من الأمم وفي كلام (السكري) أمور كثيرة لا يمكن التسليم بصحتها بل نجده هو يناقض نفسه في مواضع أخرى من كتابه . من ذلك قوله : «وكانوا يؤمنون بالحساب »[3] « ولا يأكلون الميتة »[4] ، فعمم رأيه ، وجعله شاملاً كل العرب ، بينما هو رأي طائفة من الجاهليين ، وليس جميع أهل الجاهلية . وللقرآن الكريم دليل ذلك ، فقد حمل عليهم لنكرانهم البعث والحساب، وحرم على المسلمين أكل لحم الميتة . « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »[5] . وكانوا يأكلونها في الجاهلية .

وورد أن ممن حرم أكل الميتة على نفسه (حارثة بن أوس) الكلبي ، وهو جاهلي ، يقول :

لا آكل الميتة ما عمرت نفسي وإن أبرح املاقي
والعقد لا أنقض منه القوى حتى يواري القبر أطباقي[6]

---

١ اليعقوبي (١/٢٢٤) ، (أديان العرب) .
٢ المحبر (٣٢٩) .
٣ المحبر (٣٢٢) .
٤ المحبر (٣٢٩) .
٥ المائدة ، الآية رقم ٣ ، تفسير الطبري (٦/٤٤) ، روح المعاني (٦/٥١) .
٦ المحبر (٣٢٩) .